بسم الله الرحمن الرحيم

آيَاتُ الِاعْتِبَارِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٦ صَفَر ١٤٤٤ هـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الِاعْتِبَارَ مِنْ أَعْظَمِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَخَصِّ مَزَايَا الْمُتَّقِينَ. وَأَهْلُ الِاعْتِبَارِ هُمْ أَصْحَابُ النَّظَرِ الثَّاقِبِ، وَالْقَلْبِ الْخَاشِعِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ حَثَّ عَلَىٰ إِعْمَالِ الْعُقُولِ بِالِاعْتِبَارِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَأَوْلَىٰ ذَلِكَ عِنَايَةً خَاصَّةً، بَلْ جَعَلَهُ مِنْ أَجَلِّ الْعِبَادَاتِ، وَأَفْضَلِ الطَّاعَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأبْصَارِ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾. فَكُونُوا رَحِمَكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ وَالْإِيمَانِ، وَاتَّبِعُوا سُبُلَ ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالْإِحْسَانِ؛ فَأُولُو الْأَلْبَابِ هُمْ أَهْلُ الْعُقُولِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَالْفِطَرِ السَّلِيمَةِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِالْوَحْيِ، وَيَفْهَمُونَ مَعَانِيَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ مُرَادِ اللهِ وَمُرَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَعْمَلُونَ بِكَلَامِ اللهِ؛ رَجَاءَ ثَوَابِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: وَمِمَّا دَعَانَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَىٰ الِاعْتِبَارِ بِهِ: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَاخْتِلَافُ أَحْوَالِهِ، وَتَقَلُّبُ أَجْوَائِهِ، فَفِي ذَلِكَ عِظَةٌ لِأَصْحَابِ الْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ، وَعِبْرَةٌ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْوَاعِيَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، وَعِنْدَمَا نَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا عِنْدَ ابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «التَّعْلِيقَاتِ الْحِسَانِ» : «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ فِي الْمَنَافِعِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْأَنْعَامِ لِيَنْتَفِعَ بِهَا بَنُو آدَمَ عِبْرَةً لِمَنِ اعْتَبَرَ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾. قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: أَيْ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ﴾ الَّتِي سَخَّرَهَا اللهُ لِمَنَافِعِكُمْ ﴿لَعِبْرَةً﴾ تَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ، وَسَعَةِ إِحْسَانِهِ؛ حَيْثُ أَسْقَاكُمْ مِنْ بُطُونِهَا الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْفَرْثِ وَالدَّمِ، فَأَخْرَجَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ لَبَنًا خَالِصًا مِنَ الْكَدَرِ، سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ؛ لِلَذَّتِهِ؛ وَلِأَنَّهُ يَسْقِي وَيُغَذِّي، فَهَلْ هَذِهِ إِلَّا قُدْرَةٌ إِلَهِيَّةٌ لَا أُمُورَ طَبِيعِيَّةٌ. فَأَيُّ شَيْءٍ فِي الطَّبِيعَةِ يَقْلِبُ الْعَلَفَ الَّذِي تَأْكُلُهُ الْبَهِيمَةُ، وَالشَّرَابُ الَّذِي تَشْرَبُهُ مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ وَالْمِلْحِ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ؟ وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: قَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ أَيْ: يَتَخَلَّصُ الدَّمُ بَيَاضُهُ وَطَعْمُهُ وَحَلَاوَتُهُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ فِي بَاطِنِ الْحَيَوَانِ، فَيَسْرِي كُلٌّ إِلَىٰ مَوْطِنِهِ، إِذَا نَضِجَ الْغِذَاءُ فِي مَعِدَتِهِ تَصَرَّفَ مِنْهُ دَمٌ إِلَى الْعُرُوقِ، وَلَبَنٌ إِلَى الضَّرْعِ، وَبَوْلٌ إِلَى الْمَثَانَةِ، وَرَوْثٌ إِلَى الْمَخْرَجِ، وَكُلٌّ مِنْهَا لَا يَشُوبُ الْآخَرَ، وَلَا يُمَازِجُهُ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْهُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أَيْ: لَا يَغَصُّ بِهِ أَحَدٌ. اهـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ حَثَّنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَىٰ الِاعْتِبَارِ بِقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ حِكَمٍ وَعِبَرٍ وَعِظَاتٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وَفِي ذَلِكَ لَفْتٌ لِلْأَنْظَارِ بِأَخْذِ الْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ مِمَّا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

عِبَادَ اللهِ: لَا شَكَّ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ حَافِلٌ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الِاعْتِبَارِ بِمَصَائِرِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَالِاتِّعَاظِ بِمَا عُوقِبُوا بِهِ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ رَبِّهِمْ، وَالسَّعِيدُ مَنِ اعْتَبَرَ بِغَيْرِهِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وَقَالَ ﷻ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ وَمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِ انْحِرَافِهِمُ الْعَقَدِيِّ وَالسُّلُوكِيِّ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، وَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ ﷻ قَصَصَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ خَتَمَ الْقِصَّةَ بَعْدَ نَجَاةِ رُسُلِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أَيْ: فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ، وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ لِعِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ، لَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ قَاطِعَةٌ، وَحِكْمَةٌ بَالِغَةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَيِ: الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أَيْ: بِخَلْقِهِ، فَلَا يَعْجَلُ عَلَىٰ مَنْ عَصَاهُ، بَلْ يُنْظِرُهُ وَيُؤَجِّلُهُ، ثُمَّ يَأْخُذُهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهْ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ». فَمَا أَحْوَجَنَا إِلَىٰ الِاعْتِبَارِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُقَوِّي الْإِيمَانَ، وَيُوَسِّعُ الْمَدَارِكَ، وَيَجْلِبُ مَحَبَّةَ اللهِ ﷻ، وَالْخَوْفَ مِنْهُ، وَالرَّجَاءَ فِي عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اعْتَبِرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: قَوْلُهُ:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أَيْ: إِنَّ آثَارَ هَذِهِ النِّقَمِ ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ تِلْكَ الْبِلَادِ، لِمَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ، وَتَوَسَّمَهُ بِعَيْنِ بَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: قَالَ قَتَادَةُ: لِلْمُعْتَبِرِينَ. اهـ

فَلَا يَنْتَفِعُ بِأَحْدَاثِ التَّارِيخِ، وَالْحِكَمِ مِنْ أَحْوَالِهِ إِلَّا الْمُعْتَبِرُونَ الْمُتَفَكِّرُونَ، الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِأَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَيَتْرُكُونَ أَهْلَ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَأَمَّا مَنْ لَا يَعْتَبِرُ وَلَا يَتَّعِظُ، وَلَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَلَا يَعْمَلُ لِآخِرَتِهِ، وَلَا يَحْجُزُهُ دِينٌ وَلَا عَقْلٌ عَنِ الْقَبَائِحِ وَالْآثَامِ، فَهُوَ كَالْبَهِيمَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يَذْكُرْ سِيَرَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عليهم السلام، وَخَاتَمُهُمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، إِلَّا لِنَعْتَبِرَ بِسِيَرِهِمْ، وَنَقْتَدِيَ بِهَدْيِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَنَسْلُكَ طَرِيقَهُمْ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَنَفَادِ الْأَجَلِ؛ فَمَنْ كَثُرَ اعْتِبَارُهُ قَلَّ عِثَارُهُ، وَمَنْ حَذِرَ الْمَعَاصِيَ وَالْآثَامَ عَاشَ فِي سَلَامٍ، وَوُفِّقَ لِحُسْنِ الْخِتَامِ، وَالسَّعِيدُ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ، وَالْمَغْبُونُ مَنْ وُعِظَ بِهِ غَيْرُهُ. وَلَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ مَنِ اتَّبَعُوا الْأَهْوَاءَ وَلَمْ يَعْتَبِرُوا، وَلَمْ يتَّعِظُوا بِمَا أَتَاهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ لِلَّهِ ﷻ سُنَنًا فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَمَنْ صَادَمَ سُنَنَ اللهِ سَحَقَتْهُ وَاضْمَحَلَّ، وَانْحَطَّ وَذَلَّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رحمه الله فِي «تَفْسِيرِهِ»: أَيْ: وَسُنَّةُ اللهِ فِي ذَلِكَ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُغَيَّرُ.